

كتاب الفلاحة الاندلسية « وملاحظات الامير مصطفى الشهابي »

اطلعت في « مجلة المجمع العلمي » على بحث ممتع للعالم الامير مصطفى الشهابي بتعلق بكتاب (الفلاحة الاندلسية) لابن العوام الاشبيلي وأنعمت النظر في ملاحظاته الدقيقة ومطالعته الجليلية في وصفه لهذا الكتاب الذي هو من اجل ما كتب العرب في الزراعة فأحببت ان أضف الى هذا البحث الكلمات الآتية :

في شهر يونيو (حزيران) من السنة الماضية (١٩٣٠) كنت في مجربط (مدربد) حيث أقمت مدة اسبوعين في اول رحلتي الى الاندلس . وفي اثناء مقامي بتلك العاصمة ترددت الى المكاتب التي فيها ومن جملتها « مكتبة اكادمية التاريخ » واطلعت فيها على كتب قيمة وقيدت اسماءها ونقلت بعض فصول او بعض عبارات منها على قدر ما سمح لي الوقت .

فمن أعظم الكتب التي استجلبت نظري كتاب الفلاحة للشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد ابن احمد بن العوام الاشبيلي الاندلسي رحمه الله . وكتب أخرى سأذكرها واذكر من بعضها بعد ان أنهي من الكلام على هذا الكتاب .

ولم اطلع على النسخة المطبوعة من هذا الكتاب في مجربط وهي التي أشار اليها الامير مصطفى الشهابي ولا علمت حينئذ ان هذا الكتاب كان قد طبع . بل النسخة التي اطلعت

عليها مخطوط يقع في ٨٤١ صفحة و ينقسم الى جزئين . واوله : الحمد لله رب العالمين
 وصلى الله على النبي محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين وسلم تسليماً . اما بعد فاني
 لما قرأت من كتب الفلاحة المسلمين الاندلسيين ومن كتب غيرهم من القدماء المقدمين في
 صناعة فلاحه الارضين المظمئنة كيفية العمل في الزراعة والفراسة ولواحق ذلك وما يتعلق به
 من كتبهم في فلاحه الحيوان ما وصل اليّ منها ووقف على ما نصوه فيها نقلت من عيونها
 الى هذا التأليف ما ان نظر فيه وحفظ أبوابه وفصوله ومعانيه من يريد ان يتخذ هذا الفن
 صناعة يصل بها بحول الله الى معاشه ويستعين بها بحول الله على قوته وقوت عياله واطفاله
 وجد فيه حاجته وبلغ فيه ارادته واستعان بذلك على منافع دنياه ومصالح آخراه بتوفيق
 الله تعالى اباد اذ بالقراسات والزراعات تكثرت بمشيئة الله الأوقات وقيل انه الى ذلك أشار
 النبي صلى الله عليه وسلم : اطلبوا الرزق في حنايا الارض .

وروي عن النبي (ص) : من غرس غرساً او زرع زرعاً فأكل منه انسان او طائر
 او سبع كان له صدقة . وروي عنه : من غرس غرساً فأثمر أعطاه الله من الاجر بقدر
 ما يخرج من الثمر .

روي عن ابن حزم الاندلسي : اعلموا ان الراحة واللذاة والسلامة والعز والأجر
 في اصحاب فلاحه الارض اذا كانت عشرة ية فقط . وفلاحه الارض هي اهني المكاسب
 جملة . انتهى .

وصاحب هذا الكتاب ينقل كثيراً عن الفقيه الامام ابي عمر احمد بن محمد بن حجاج
 في كتابه المقنن وهو الذي الفه سنة ست وستين واربعمئة . و ينقل فيه عن الرازي وعن
 اسحاق بن سليمان وعن ثابت بن قرة وعن ابي حنيفة الدينوري . وقد اخذ ايضاً عن الفلاحه
 النبطية تأليف قوتامي وهو مبني على أقوال جلة من الحكماء منهم آدم وصفر بن وبنوشاد
 واخنوخا وماسي ودونا وكاميري وغيرهم .

واخذ ايضاً عن كتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصالح الاندلسي وهو
 المبني على تجار به وعن كتاب الحكيم الشيخ ابي الخير الاشبيلي وهو مبني على آراء جماعة من
 الحكماء والملاحين وعلى تجار به الخاصة وعن كتاب الحاج الفرناطي وكتاب ابن ابي الجواد
 وكتاب غريب بن سعد وعن حكماء اليونان .

وقد قسم التأليف الى سفرين الاول في معرفة اختيار الارضين والزبول والمياه
وصفة العمل في الفراسة والتركيب والثاني الزراعة وما اليها وفلاحة الحيوانات .
والباب السادس عشر هو في صفة العمل في اختزان الحبوب والفواكه - الغضة
واليابسة واختزان التين غصاً وياساً واختران النفاح والكمثري والسفرجل والأترج
والرمان والايـ جاصن والقراشيا والعناب والبلوط والقسطل والفستق والبر والشعير والعدس
والفول والدقيق وزرايع الخضر والورد المهبس والورد المقطر وتحليل بعض الخضر
واختزانها لتؤكل في غير ايامها .

والباب الخامس عشر هو في التطعيم وفيه صفات في دس الطيب والحلاوة والترياق
اخ في الأشجار المطعمة وفي القضبانات والبقل المغترسة ليؤدي ثمرها طعم ذلك وفوحه
وقوته وصفة عمل بصير به لون الورد أصفر ولازوردياً ايضاً . وتدبير في الورد حتى
يورد في غير ايامه . وتدبير في النفاح حتى يثمر في غير ايامه . وكيف يُتخيّل في ثمر
النفاح حتى يحدث فيه كتابة وتصوير . وصفة عمل في ثمر السفرجل والكمثري والنفاح
والبطيخ والقثاء حتى تتشكل الحبة منها باي شكل احببت . وصفات ايضاً في العنب
يطول بها حبه وبصير عنقوده كأنه حبة واحدة ويكون عنقوده فيه حب ذو ألوان
مختلفة . وكيفية تدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى . وتدبير في شجر التين
حتى يكون في الغصن منه حبات تين مختلفة الألوان وحتى تكون التينة الواحدة فيها
ألوان مختلفة وكيف ينبت في الخس والسلق أنواع من البقول تجتمع في اصل واحد الخ .
وفيه في قسم فلاحة الحيوان عن الحيوانات وتربيتها وأنواعها ما لم أراه في كتاب
آخر انتهى .

هذا كل ما وجدته في كتابي منقولاً عن كتاب الفلاحة الاندلسية للشيخ ابي زكريا
يحيى ابن العوام الاشبيلي نسخت ذلك كما تقدم الكلام عليه ولم يتسع لي الوقت ان أنسخ
اكثر من ذلك فيما كنت فيه مع ضيق الوقت من النفقش في خزائن الكتب المختلفة
كمكتبة الاسكوريال والمكتبة الملوكية ومكتبة اكااديمية التاريخ . وكان مرادي ان
أنقل ما في كتابي هذا عن هذا الكتاب النفيس الذي لم أجد اوفى منه بعلم الزراعة عند
العرب الى رحلتي الاندلسية التي انا مباشر تحريرها .

قال الامير مصطفى ان دوزي وغيره نقلوا عن هذا الكتاب وانه بعد اكبر معلية زراعية في القرن الوسطى . ومن الغريب انه قد ذكر مثلي اسماء اكثر الذين اعتمد عليهم ابن العوام من علماء الزراعة الذين سبقوه وانه مثلي قد استغرب فقد هذه الكتب التي لم نجد لها اثرآ في الفهارس . ولقد نقل الامير الشهابي بعض أقوال علماء الافرنجية عن كتاب ابن العوام هذا ثم أبدى بشأنه مع اعترافه بجلالة قدر الكتاب آراء سديدة فمما قاله ان ابن العوام وأمثاله ممن الفوا في الزراعة كانوا قليلي الحرص على سلامة لغة مصنفاتهم ثم انهم كانوا يستعملون في بعض الأحياء الفاظاً ومصطلحات لا تجيزها معاجم اللغة وقواعدها . قلت ومن هذه الالفاظ لفظة الغراسة بمعنى الزراعة فقد أجراها ابن العوام بحرى الزراعة والصناعة اي جعلها مصدراً ، والحقيقة انه لم يرد في كتب اللغة ذكر الغراسة بهذا المعنى وانما الغراسة هي الفسيلة التي نغرس كما ان الغراس هو ما بغرس و يأتي ايضاً بمعنى وقت الغرس . وانك لتجد في مثل هذه الكتب الفاظاً ومصطلحات عامية ربما حملهم عليها سراة فهم العسامة الذين اكثرهم لبسوا بلغوين وهم أحوج الى المعنى منهم الى اللفظ . ثم ان الامير يقول ان طبعة مجربط من هذا الكتاب بالعربية والاسبانية مشحونة بالاغلاط المطبعية وهو ادري بذلك لاني انا لم أطلع على النسخة المطبوعة وانما قرأت المخطوط ونقلت عنه ، لكن بلغني ان من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة لندن ونسخة أخرى خطية في المكتبة الوطنية في باريز ونسخة أخرى خطية في مكتبة الاسكور بال .

وسمعت ان من هذا الكتاب مخطوطاً رابعاً وهذا السماع عن الاستاذ المستشرق هس مدرس الألسن الشرقية في جامعة زورنيخ واحد اعضاء مجمعنا العلمي . ولعل هذا المخطوط الرابع هو الذي اطلعت عليه انا في خزانة اكااديمية التاريخ في مجربط . و يقول الاستاذ هس ان ترجمة هذا الكتاب الى الافرنسية مشحونة غلظاً لان المترجم كاتب ضعيفاً في العربية .

وبقول الأخ أمير انه مما بلفت النظر ان بعض الذين نقل عنهم ابن العوام كاتب عبد الله ابن الفصال الاندلسي كانوا يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية وهي ينساير وفبرابر الخ . قلت ان هذا الاستعمال كان عاماً في الاندلس والمغرب ولا يزال الى يوم الناس هذا فجميع إخواننا المغاربة من السوس الاقصى الى طرابلس يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية

وكذلك إخواننا المصريون ، ولم يكن هذا اصطلاحاً جديداً نقلوه عن الاوربيين بل هو اصطلاح قديم عندهم باقى من القرون الوسطى وليس من يؤرخ بالاشهر السريانية غيرنا نحن الشاميين ومن الينا . وانا على رأي الاخ الشهابي في وجوب وضع اسماء الاشهر الافرنجية بجانب السريانية بين قوسين . ولقد أورد الاخ كثيراً من الالفاظ التي جاءت في كتاب ابن العوام وفسرها وقابلها بامثالها من مصطلحات اهل بلادنا في معناها ووضع بجانبها ترجمتها بالافرنسية وأورد امثالاتاً لغوية زراعية معاً دلت على ضلوعه في كل من الفنين اللغة والزراعة .

لوزان :
شكيب أرسلان
عضو المجمع العلمي